

التاريخ العربي بين إعادة الكتابة وإعادة القراءة والتحديث

د. قبلان المجالي
جامعة مؤتة

بداية لا بد من الاستئذان من المختصين بعلم التاريخ،
للخوض في موضوع امتزج في ذهني بصورة العلاقة الجدلية
المتغيرة بين الحادث الاجتماعي والمادة التاريخية من
جانب، وبصورة العلاقة الاتحادية بين التاريخ والتراث رغم
الفوارق الشكلية بينهما من جانب آخر. فانا هنا لست مؤرخاً
رغم رغبتني في أن أكون، ولكنني شاهد على حوار يدور منذ
ابن خلدون والمقرئزي إلى الجابري والدوري، فأرجو المَعذرة
على هذه الشهادة التي قد تكون غير مطلوبة ولكنها قد تكون
مفيدة على الأقل من وجهة النظر الموضوعية، وأنا هنا لست
بلحاً ولكنني كاتب.

والتشكيك. ولعلّ المفكر العربي عبدالرحمن
ابن خلدون كان من أوائل من تعرض للكتابة
التاريخية بالنقد. فالتاريخ بالنسبة لابن
خلدون فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف
الغاية، وحتى تتم الفائدة، كما يرى ابن
خلدون، لا بد من تنوع المصادر والمعارف

المؤرخ كما يقال، رجل لم يكن هناك،
والتاريخ بهذا المعنى أو ذاك شيء كان هناك.
ونظراً لغياب المؤرخ أو الشاهد وصعوبة
الإثبات وسهولة الطعن والتشكيك، فقد
تعرضت الكتابة التاريخية للنقد والتشكيك في
صحتها أحياناً وفي كمالها أحياناً أخرى. وقد
كانت مسألتنا ضعف المناهج وغياب
الموضوعية أكثر المسائل تأثيراً وحفزاً للنقد



تعقيق الموضوعية، وغياب المنهج وعدم إخضاع الرواية والحدث للنقد والتحليل يعد ضعفاً في المنهج، واستناداً إلى وجود هذه النواقص، إذا ما اعتبر كلام الدوري صحيحاً، فلا بد من أن يكون هناك حوادث مهمة حرفها التاريخ وحوادث أخرى مهمة أهملها التاريخ.

وربما يتفق الجابري مع الدوري في نقده للتاريخ بقوله "إن قراءتنا للتاريخ العربي والتراث قد عانت من أفتين: أفة المنهج وأفة الرؤية. فمن ناحية المنهج فإن هذه القراءات تفتقر إلى الحد الأدنى من الموضوعية، أما الرؤية، كما يرى الجابري، فقد عانت من غياب النظرة التاريخية. ويتوافق مع الآراء السابقة "الطيب تيزيني" حين يقول إن التاريخ العربي الذي قدم لنا على مدى قرون عديدة في مجلدات ضخمة لا تحصى ويسود معظمها خلط مريع بين التاريخ والتتظير التراثي، فَقَدَ على هذا الطريق، حركته ومضمونه الحقيقي، وأدى إلى إبراز وتعميق التأكيد بأن تاريخاً فعلياً دقيقاً للتاريخ ليس ممكناً بسبب بروز المصالح والمواقف الخاصة بالمؤرخين وطمعانياتها على الحدث المؤرخ له، وإنه بالتالي لا يمكن التحدث عن التاريخ كعلم. ورغم تطرف رواية التيزيني واجفافها بحق التاريخ كعلم، إلا أن فيها إشارة واضحة تتوافق مع الجابري والدوري وتقدم لواقع التاريخ في عالمنا العربي.

والسؤال الأساسي الذي يفرض نفسه في هذا السياق هو هل التاريخ العربي كتب كاملاً، أم هل كتبت أجزاء منه؟ وهل هذه الكتابة كانت كتابة علمية صحيحة؟ ولعل الدوري قد أجاب على هذا السؤال بقوله إن تاريخ العرب ككل لم يكتب وإنما كتبت أجزاء

أولاً، ولا بد من حسن النظر والتثبت ثانياً. ومن هذا المنطلق رفض ابن خلدون أسلوب النقل المجرد فلا بد من إمعان النظر في كل الظروف المحيطة والمتعلقة بالظاهرة أو الحدث، ولا بد من عرض الخبر على أصوله وقياسه بأشباهه والسير بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. وبناء على هذه الشروط فقد رفض ابن خلدون كثيراً من الروايات التاريخية، كالذي نقله المسعودي وغيره من المؤرخين في عدد جيوش بني إسرائيل، وكذلك رفض رأي المفسرين في الآية الكريمة من سورة الفجر "الم تركيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد". كما رفض رواية المؤرخين حول نكبة الرشيد للبرامكة وقصة العباسية اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، ونفى الروايات عن مجون الرشيد بالعديد من الشواهد والأدلة التي تظهر ورع الرشيد وحسن إيمانه، بالإضافة إلى نفي ما وصف به المأمون من استهتار ومجون.

لقد ازدادت الأصوات المطالبة بإعادة كتابة التاريخ العربي أحياناً وبإعادة قراءة التاريخ العربي أحياناً أخرى. فجعبدالعزیز الدوري يرى أن تاريخنا قد تعرض للتشويه لأسباب عديدة يذكر منها:

- ١ - الميل والميل المضادة وتداعي الرواة وبعض المؤرخين.
- ٢ - عدم إخضاع ذلك للنقد والتحليل.
- ٣ - ضعف المنهج أو غيابه كلياً.
- ٤ - المنطلقات الإيديولوجية والوطنية والإقليمية والطائفية.

إن المتمعن في وجهة نظر الدوري لن يجد صعوبة في اختزالها بكلمتين أو مشكلتين هما: الموضوعية وغياب المنهج. فالميل والإيديولوجيات والنزعات الإقليمية والوطنية

أيضاً من الحد من هيمنة التاريخ على حاضرنا ومستقبلنا. ولقد أبدع الجابري بتصوير حالة التاريخ (المستقبل والحاضر) بقوله أن هناك حواراً بين الماضي والمستقبل، أما الحاضر فغير حاضر، وليس فقط لأنه "مرفوض" بل لأن حضور الماضي قوي في هذا المحور إلى الدرجة التي جعلته يمتد إلى المستقبل ليحتويه، تعويضاً عن الحاضر وتأكيداً للذات ورداً للاعتبار لها. بل إننا أمام التحدي الحضاري الغربي ننكص إلى الماضي للاحتماء به وأخذ مواقع دفاعية فيه. فالماضي الذي أعيد بناؤه بسرعة قصد الارتكاز عليه "للنهوض" أصبح هو نفسه مشروع النهضة.

إذا كان اليقين أساس العقيدة، فإن الشك، كما يرى الدوري، من متطلبات البحث التاريخي. فالتاريخ ليس خزانة معلومات محققة وموثقة، والتاريخ خضع للايديولوجيا، والتاريخ خضع للسلطة الرسمية فأصبح هناك تاريخ رسمي وآخر باطني. والنص التاريخي ليس هو الواقع ولكنه رواية إنسان عن الواقع ورؤيته له. واهتمام المؤرخين ينصب على الرواية وليس على الواقعة، فالواقعة هي الأولى بالتحقيق والتوثيق وليس الرواية، إذ أن الرواية تخلط بين الحدث والمصلحة (غياب الموضوعية) وبين الواقع والأسطورة، وتهتم بالشكل أكثر من اهتمامها بالموضوع. فالتاريخ علم وفن، على قول ابن خلدون، وليس نصاً مقدساً غير قابل للنقاش أو البحث.

أليس هناك أحداث مهمة كثيرة ما زالت بحاجة إلى تفسير وتوضيح، كيف انقسم العرب إلى قحطانيين (عرب الجنوب) وعدنانيين (عرب الشمال)، هل من تفصيل تاريخي يوضح لنا على وجه الدقة سبب هذه

أو صفحات منه، وهنا أيضاً لا بد من بروز استفسارات مهمة وضرورية، منها مثلاً: هل هذه الأجزاء التي كتبت كانت مختارة ومنتقاة أم هل كانت عشوائية؟ وهل الأهم الأخرى كتبت تواريخها بشكل كامل؟ وهل المهم كتابة التاريخ أم أن تفسيره وفهمه هو الأهم؟ وهل كتابة هذه الأجزاء كانت موحدة ومتفقة؟.

يرى الجابري أننا لسنا بحاجة إلى مجرد إعادة كتابة أو قراءة للتاريخ العربي، ولسنا بحاجة إلى إعادة كتابة الأحداث ولكننا بحاجة إلى فهم تفسيري للأحداث، حتى نصل إلى تفسير سببي لمسارها ونتائجها، وهو ما يشير إلى تفسيرات موضوعية لا ذاتية للأحداث. ونحن لا نريد تاريخاً يحصل على رضى وموافقة عامة، ولكننا بحاجة إلى تاريخ صحيح مقبول ومقنع. ولا نريد تاريخ سلطات وزعامات بل تاريخ شعوب وعلماء. ولقد وصف الطيب تيزيني حالة تعامل المفكرين والمثقفين العرب مع التاريخ والتراث العربي بقوله: أنه يشبه نمط تعامل الخالة زوجة الأب السيئة الشريرة مع أطفاله، أما الفارق بين أولئك المفكرين والخالة فهو أن هذه الأخيرة تخطط بلؤم لكي توقع بين زوجها وأطفاله، بينما أولئك "يعتقدون" أنهم يخدمون ذلك التاريخ والتراث خدمة جلى.

وفي الحقيقة لا يمكن النظر إلى دعوات إعادة كتابة التاريخ العربي أو إعادة قراءته، كحالة منفصلة ومعزولة، بل لا بد من النظر إليها والتعامل معها كجزء من إعادة تجديد الفكر العربي وتحديث العقل العربي، وهي جزء من الدعوات لحدوث ثورة ثقافية في الواقع العربي الراهن، وفي إطار ثورة إجتماعية شاملة. ولا بد لهذا التجديد من أن يبدأ من عمق التاريخ ومن التراث، ولا بد



بحاجة إلى إعادة تفسيرها وفهمها بشكل شمولي عن طريق ربطها بأبعادها كافة. فالحدث التاريخي له أبعاده (أسباب ومجريات، ونتائج) السياسية والاجتماعية والدينية والنفسية التي لا بد من أخذها بالحسبان عند كتابة أو قراءة الحدث التاريخي، ولعل ذلك يوصلنا إلى الحقيقة والحق الذي لا مجمعة فيه على قول ابن سينا، فالمادة التاريخية إذا ما جردت أو فصلت عن معطياتها وظروفها الموضوعية، تصبح خارج نطاق وصلاحيات البحث العلمي، كما يرى الطيب تيزيني، فنحن لا نستطيع النظر إلى حدث تاريخي بمعزل عن تأثير الأفراد والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والانسانية، بذلك نكون قد جردناه من مواصفاته الانسانية التاريخية، وجعلنا منه في النهاية أسطورة يراد لها أن تكون دائماً فوق التاريخ.

نحن نقرأ التاريخ من أجل الاستذكار والافتخار لا من أجل الاستكشاف والاستفهام، ونحن كما يقول الجابري، عند القراءة نسابق الكلمات بحثاً عن المعنى الذي يستجيب لحاجتنا ورغباتنا، ونحن نقرأ المعنى قبل أن نقرأ اللفظ. أما عند الكتابة فنحن نكتب في ضوء عصرنا ومعطياته عن الحوادث التي حدثت قبلنا، وهذا ما سماه طيب تيزيني بـ "إمكانية تدخل عصر المؤرخ بعصر المادة التاريخية". إن التأريخ لحوادث الماضي يجب أن يبدأ هناك، عند نقطة البداية وفي المصادر الأصلية مادية وكتابية، أما تدخل عصرنا فيجب أن لا يتعدى الاستعانة بالمناهج العلمية المتطورة، والاستفادة من ثورة المعلومات والاتصالات لجمع وحشد كافة الأدلة والأجزاء المتعلقة بالحدث التاريخي.

القسمة ومجرياتها. ثم هناك قضية الموضوعية، أليس كل ما كتب عن العصر الأموي كان في العصر العباسي، أو ليس كل ما كتب عن الصراع بين الأمين والمأمون جاء من كتابات متحيزة خطها إما شيعي أو فارسي (مثلاً تاريخ اليعقوبي - شيعي، تاريخ الرسل والملوك للطبري - فارسي، الأخبار الطوال، للدينوري - فارسي، والفخري لابن طباطبا - شيعي) وكل هذه الكتابات كانت منحازة للمأمون ضد الأمين. ماذا عن حرب علي ومعاوية؟ وماذا عن كتابي الباهر والكامل لابن الأثير عن عهد صلاح الدين الأيوبي؟ أليس الكاتب كان والياً لدولة الاتابكة التي أطاح بها صلاح الدين، ماذا عن الكتابات عن قسوة الحجاج وعن مجون الرشيد؟ ماذا عن عزل عمر لخالده؟ أين روايات الروم والفرس عن الحروب والفتوحات الإسلامية؟ لا أريد بهذه الأسئلة أن أشك في تاريخنا ومصادرنا، ولكن السؤال يبقى هل كتب تاريخنا بظروف موضوعية؟ وهل كتب بطرق علمية صحيحة؟ وهل كتب كل شيء؟

إن طرح التساؤلات السابقة والاهتمام أساساً في هذا الموضوع لم يكن من أجل التاريخ بحد ذاته ولكنه من أجل الحاضر والمستقبل، وهو ليس مجرد تعامل مع التاريخ ولكنه تعامل مع التراث الذي لا بد من إعادة بنائه لكي نعيش عصرنا وننظر لمستقبلنا، فنحن لسنا بحاجة إلى مجرد إعادة قراءة التاريخ أو كتابته، ولكن ما نحن بأمس الحاجة إليه هو المزج أو التزاوج بين المادة التاريخية والحدث الاجتماعي ونحن بحاجة إلى تحليلات موضوعية للتنظيمات السياسية والبناء الطبقي والسلوك الاجتماعي والديني، وبالتالي فنحن لسنا بحاجة إلى إعادة كتابة الحوادث ولكننا

ثورة ثقافية في الواقع العربي الراهن. وضرورة التوحيد بين التاريخ والتراث، بين علم التاريخ ونظرية التراث. كما ويرى تيزيني ضرورة إبعاد وجهات النظر اللاتاريخية واللاتراثية والتي برزت بصيغ متعددة دينية وقومية وعلمية ليبرالية وتلفيقية وعدمية، والتي إما أن ترفض تاريخنا رفضاً كاملاً أو تطلب أن تأخذ به كاملاً ودفعاً واحدة.

ويقترح الدوري كحل للخروج من مأزق الموضوعية والمنهج ما أطلق عليه "مسألة تحقيق التاريخ" ويحدد التاريخ العربي بحقتين :

- الأولى - حقبة ما قبل الاسلام.
- الثانية - حقبة ما بعد الاسلام.

وقد قسم الدوري كل حقبة من هذه الحقبة إلى عدد من الفترات المتتابعة. ولكن يبقى سؤال أساسي في هذا الصدد، وهو، في ضوء الحقبة، هل مشكلتنا الموضوعية والمنهج قد حلتا في كتاباتنا لتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، أم أن حقبة واحدة عانت من ذلك، وهل عانت إحداها من جانب معين ولم تعان من جانب آخر، وهل موضوعيتنا كانت ماثلة عند الكتابة عن العرب قبل الإسلام وغابت بعد الإسلام، أم هل غابت في كلا الفترتين؟

لقد دعا الدوري إلى الاستعانة بمنهج الشك الذي هو من متطلبات البحث التاريخي، وهو يرى أن تحديث الدراسات التاريخية لدينا تأثر بالمفاهيم الغربية. ولا بد هنا من الإشارة إلى إضافة مصطلح جديد في مسألة التاريخ وهو "تحديث الدراسات التاريخية" فما هو الفرق بين إعادة كتابة التاريخ وإعادة قراءته وأخيراً تحديث

لقد تعددت الحلول المقترحة للخروج من مأزق التاريخ، والخروج من هذا المأزق لا يعني أو لا يخص المؤرخين وحدهم ويجب أن لا يكون كذلك، وذلك على الرغم من ضرورة وأهمية دورهم. فهناك علاقة جدلية بين التاريخ والحاضر والمستقبل، وبين التاريخ والتراث. فالتراث جزء من الحاضر وهو في الوقت نفسه بصمات من التاريخ، ولعل أبرز ما يميز التراث عن التاريخ هو وجود التراث في الحاضر وتمثله بشواهد مادية ومعنوية. والتراث أيضاً بحاجة إلى توثيق علمي قبل بعثه والاستفادة منه إن كان في ذلك ما يفيد الحاضر والمستقبل. ويقترح الجابري منهجاً ومستويات لإعادة كتابة التاريخ أو قراءة التراث تنطوي على جانبين :

الأول - ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث، ويقصد بذلك التخلي عن الفهم التراثي للتراث والتحرر من الرواسب التراثية في عملية فهمنا للتراث، ومن أهمها "القياس" النحوي - الفقهي - الكلامي في صورته الآلية واللاعلمية، والقائمة على الربط الميكانيكي بين الأجزاء. ومن هذا المنطلق، يأخذ الجابري على القراءة السلفية أنها تنزه الماضي وتقده وتستخدمه كحلول جاهزة. فالمطلوب كما يرى الجابري هو التحول من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث.

الثاني - فصل المقروء عن القارئ، وهنا يشير الجابري إلى الموضوعية إذ يجب فصل الذات عن الموضوع والموضوع عن الذات. فالقارئ العربي كما يرى الجابري مؤطر مثقل بحاضره، فجعل المقروء معاصراً لنفسه معناه فصله عنا، وجعله معاصراً لنا معناه وصله بنا، وبذلك يكون الفصل والوصل هو المطلوب في تعاملنا مع التراث.

أما طيب تيزيني فيطالب بضرورة حدوث



هذه المشكلات، ورغم حاجتنا الماسة لهذه الاقتراحات الا أن حاجتنا إلى الخطوات العملية أكثر أهمية وإلحاحاً.

ونحن بحاجة إلى تاريخ عربي وليس إلى تواريخ عربية، ونحن بحاجة إلى تاريخ صحيح وليس إلى تاريخ مُرضٍ، ونحن بحاجة إلى تاريخ موضوعي لا إلى تاريخ ذاتي. ونحن بحاجة إلى تفسير الوقائع لا إلى تسجيلها، ونحن بحاجة إلى وقائع متكاملة

يمتزج فيها الاجتماعي بالنفسي والاقتصادي والسياسي مع التاريخي. وليس المهم إعادة كتابة التاريخ أو إعادة قراءته أو تحديث الدراسات التاريخية ولكن المهم أن يقدم لنا

التاريخ الصحيح ليخدم حاضرنا ومستقبلنا لا أن يكون حاضرنا مأسوراً ومصدراً من تاريخنا، فالمطلوب أولاً وأخيراً هو رحمة حاضرنا ومستقبلنا بتاريخنا، ورحمة تاريخنا من ذاتيتنا وغياب موضوعيتنا.

الدراسات التاريخية؟. ويشير الدوري أيضاً إلى وجود مشكلات أخرى في مسألة التاريخ العربي وهي عدم تفرد المؤرخين بحقل التاريخ، إضافة إلى عدم اعدادهم لذلك، كما أشار الدوري إلى موضوع التركيز على التاريخ السياسي ودراسات الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية وتاريخ المدن وتاريخ الحضارة، ويرى أن تقسيم التاريخ إلى هذه الأجزاء قد يؤدي إلى الدقة والعمق ولكنه قد لا يؤدي إلى الفهم الأفضل للتاريخ.

لقد بدأ نقد التاريخ كتابة وقراءة ومنهجاً منذ مقدمة ابن خلدون "وإغاثة الأمة بكشف الغمة" لتقي الدين المقرئزي وإمتدت إلى الجابري والدوري وتيزيني، وأقْدَر أنها ستبقى وستمتد إلى المستقبل، إذا لم يتم حسمها بطريقة أو بأخرى. فهناك تأكيد بأن تاريخنا لم يكتب بشكل كامل، ولم يكتب بشكل موضوعي، ولم يكتب وفق المناهج العلمية الصحيحة، وهناك اقتراحات نظرية كثيرة للخروج من هذا المأزق والتغلب على

المراجع التي استفاد منها الكاتب

الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص ١٣، ١٩، ١٧، ٢٢، ٢٣، ٤٣.
٤ - الدوري، عبدالعزيز، "كتابة التاريخ العربي"، المستقبل العربي (١٦٣)، ايلول/١٩٩٢ م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ٤ - ١٣.

١ - ابن خلدون، عبدالرحمن، المقدمة، دار الجيل، بيروت - (د.ت)، ص ١٠ - ٣٨.
٢ - تيزيني، طيب، من التراث إلى الثورة، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٦، ص ٢٢، ٢٥، ٣٢، ٥٣، ٧٢، ١٣، ١٥.
٣ - الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، المركز